بالعربي الفصيح

القضيـة الوطنية والوحـدة الوطنيـة

بقلم : ابو جهاد

إن انقسام الراي وتعدد الاحزاب واختلاف وجهات النظر ، لظاهرة صحية وطبيعية باوساط المجتمعات المتحضرة ، واحدى الاسس المتينة التي تقوم عليها مبادىء الديمقراطية ، وضرورة حتمية يفرضها واقع النضال ، من جل المصالح الوطنية والقومية لكل الشعوب والامم ؛ في السمو بالقرارات المصيرية إلى الدرجة الاكثر مناسبة لمخططاتها واهدافها الواقعة والمستقبلية على حد سواء • ونزعة الانسان الفطرية في السعي الحثيث • من أجل المصلحة العامة على الدوام امام خيارات مختلفة وسبل متعددة على مفترق الطرق المجهولة معالمها المستقبلية والمتباينة إلى حدود متميزة ، بين الطول والقصر ، والسهولة والوعر والسالكة والكثيرة العوائق والمنعطفات والحواجز الشائكة • وبعد دراسة وافية وتحليل دقيق وتمعن مدروس لكل الايجابيات والسلبيات من جهة او التضحيات والمكاسب من جهة اخرى ، يمكن للانسان بعد ذلك كله ان يتخذ القرار ـ او ـ لا يتخذه انطلاقا من واقع قدراته وامكاناته التي يمكن ان يتقدم بها ، ومن واقع حاجاته التي لا غنى له عنها بمعتقداته ومفاهيمه الخاصة • ومن هنا يمكن ان نبدأ الحديث عن القضية الوطنية والوحدة الوطنية بالمؤشرات التالية :

١ـ ان المصلحة العامة هي الاسس وانبل المثل التي يناضل الجميع من اجلها • وبذلك تكون القضية الوطنية هي الهدف الاسمى والشرف الارفع كذروة سنام المصلحة العامة • حق الجميع وواجبهم المقدس يؤديه المواطن عن قناعة تامة واخلاص اكيد • والطرق من اجل القضية متشعبة ومتعددة المسالك وليس محصورة بفكر او مبدأ دون غيره •

٢ـ عندما يقف الانسان على مفترق الطرق ، فمن حقه بما يملك من قدرات فكرية وتجربة ذاتية ان يمعن النظر ويعيد الحساب في اجتهاده لاختيار الانسب لامكانياته على البذل والعطاء والتضحية ، بعيدا عن التضليل والتشكيك • والانسب ايضا لحاجاته بعيدا عن الخيال والاوهام واحلام اليقظة • ومن هنا كانت الدعوة للمبدأ ، ليس بطرح الايجابيات وحدها ، دون عرض للنواقص والسلبيات بموضوعية وتجرد عن الذاتية والانانية ، وصدق وصراحة في التحليل المنطقي لكل الابعاد والظروف المحيطة بالطريق والهدف على حد سواء •

٣ـ إن الانسان إذ يمضي في الطريق الذي اتخذه• فمن حقه ان يمهد لنفسه سبل النجاح والمناخات الاكثر مناسبة في حدود معينة • ومن واجبه ان يفذ المسير نحو الهدف مقتنعا على الدوام بانه قد مضى وهو يملك حرية التقدير والاختيار وان هنالك طرقا كثيرة قد مضى بها الآخرون في الوقت الذي لا يزال فيه الكثيرون على المفترق بين إقدام وإحجام •

ومن هنا كانت المصلحة الوطنية هدفا للجميع ، وما المبادىء والمعتقدات بكل الوسائل وشتى الاساليب إلا عملا من اجلها وتضحية في سبيلها• وانها على الدوام ستبقى الرباط الذي يضم الجميع إلى وحدة الهدف والمصير • وحيث كانت الدعوة للمبدأ حق مشروع فان ما يصادف على الطريق من نجاحات او انتكاسات على حد سواء ما هي إلا مسؤوليته دون ذنب للآخرين •

٤ـ ان يتخذ الانسان طريقه حق مشروع تقره كل القوانين والاعراف • ولكن ذلك لا يكفي ابدا • فالقناعة بالشيء واجب ومبادرة بالمباشرة بلا تردد ايا كانت الظروف ومهما تكن المعضلات • واخطر شيء يرتكبه الانسان ان يبقى المفترق بين الحيرة والتردد لتبقى الطرق خاوية والاهداف بعيدة المنال • وتلك كانت ولا تزال عقدتنا المنيعة والعقبة الكاداء التي حالت وتحول دون التقدم نحوها قيد انملة •

لقد طال الانتظار بنا على المفترق بالرغم من ان نسبة عالية منا قد حددت طريقها • لم نحجم عن المضي في الطريق فحسب بل قمنا بتحويل المفترق لساحة صراع دامية ومريرة كانت ولا تزال تمضي بنا بعيدا عن جوهر القضية التي نذرنا انفسنا من اجلها • ومكثنا طويلا في دوائر مقفلة لا نفاذ منها •• عائقا جديدا اردناه لانفسنا المريضة • وسدا منيعا بنيناه بايدينا الملطخة •

٥ـ كان من البديهي جدا ان المضي في الطريق من اجل الاهداف السامية لا يتقبل الصراعات الداخلية ويترفع عن الذاتية والانانية والاحتكار • لان الطريق ومن مضى به ما هو إلا وسيلة من سبل متعددة وجزء يسير من مجموعة متكاملة • وعليه فان إدعاء البعض واغتراره بقطع اشواط طويلة من السبل التي اتخذوها ما هو إلا دعايات جوفاء واباطيل زائفة الاهداف إعلامية بحتة والدليل الاكبر على ذلك استمرار الصراعات الداخلية مع النفس والنزاعات المستفحلة مع الغير بما يتناقض وجوهر المبدأ من اساسه ويثبت الاستمرارية في دوام السعي بالدوائر المغلقة على نقطة البداية •

إن العمل الوطني لم يكن في يوم من الايام ولن يكون ابدا سلعة يمكن تبادلها وتجارة يسهل احتكارها• وتنصيب ذوي المبادىء والعقائد من انفسهم ملوكا لقيادة الآخرين وتوجيه الآخرين واحتواء الآخرين كشرط اساسي وهدف اساسي للمضي في الطريق لاكبر دليل على الفشل الذريع في السمو بانفسنا لمستوى المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقنا اتجاه ما نناضل من اجله وفي سبيله •

لقد كانت الاتجاهات السياسية والمعتقدات الفكرية من اجل المصالح الوطنية والاهداف القومية متاصلة باعماق الشعب العربي الفلسطيني كشعب عريق مكافح منذ الازل • ومع بداية القضية كانت المصلحة الوطنية اهم الاهداف التي ناضل من اجلها الشعب الفلسطيني بكافة قياداته واتجاهاته • وبقيت اشكال النضال إلى عام النكبة أقرب ما تكون إلى العمل الفردي والجهود الذاتية على مختلف الاصعدة السياسية والعسكرية ، تفتقر للوعي المبدائي والثقافة الثورية والتنسيق الجماعي • حقا لقد كان الاجماع على المصلحة العامة شاملا ، ولكن لم يكن هنالك من يملك القدرة على اتخاذ القرار في الحرب والسلام والذي انعكست آثاره السيئة على بقاء القضية في طريقها إلى الانسياب الاعمى ومن ثم إلى الركود والضياع •

لقد اتخذت القضية ابعادا جديدة واشكالا متعددة وانحرافات خطيرة ساهمنا كثيرا بصنعها واخراجها إلى حيز الوجود لتسير بنا القضية من سيء إلى اسوا في واقع اشد مرارة وطرق اكثر وعورة وتباعد عن المفترق يكتنفه الغموض والمزيد من المتاهات والحواجز •

ويمكن لنا تصوير الوقائع آنذاك على النحو التالي :

١ـ بحلول الخامس عشر من ايار عام ثمانية واربعين انقسم الشعب الفلسطيني رغم انفه وخروجا عن طوعه وارادته بين محتل ومقيم ولاجيء مقيم ولاجيء مشرد وبذلك تباعدت بنا المسالك وان كنا لا نزال مجتمعين على الهدف والمصير •

٢ـ دخول الجيوش العربية فلسطين افقد الشعب الفلسطيني قدرته وحقه الطبيعي في المبادرة واتخاذ القرار • لم يكن له راي يسمع بمشاريع التقسيم والحلول السلمية ولم يكن يملك شيئا في القدرة على مواصلة الحرب التي توقفت ، وتجمدت بتوقفها القضية بين اللا حرب واللا سلم لسنوات وسنوات متعاقبة •

٣ـ ارتات بعض القيادات الفلسطينية آنذاك طريق القومية العربية من اجل المصلحة الوطنية بمحض حريتها وارادتها • وتم ضم الضفة الغربية لشرقي الاردن ، وقطاع غزة لمصر ، في الوقت الذي كان من السهل والواجب معا انشاء الدولة الفلسطينية المستقلة بتلك المناطق والذي غدا بعد ربع قرن من اكثر المطالب الوطنية والقومية الحاحا وسعيا من اجله • وقد زاد ذلك من تشتت وانقسام الشعب الفلسطيني وتفاقم ازماته •

٤ـ كان من الواجب والمسلم به ان تقوم القومية العربية بمساعدة الشعب الفلسطيني على تحقيق وحدته الوطنية وتضميد جراحه النازفة وتهيئة جميع السبل والمناخات التي من شانها حق تقرير المصير بكامل حريته ومحض ارادته • من اجل مصلحته الوطنية • وعلى العكس من ذلك تماما دخلت القضية الفلسطينية ون اوسع الابواب متاهات وصراعات القومية العربية ومتناقضاتها الشاسعة• ولم يكن ذلك وللاسف الشديد من اجل الاهداف القومية من قريب او بعيد ولكن من اجل اهداف ذاتية وانانية زادت كثيرا من العناء والاجهاد بالدوائر المغلقة •

وتمر الايام وتتابع السنين ، الانقلابات العسكرية المتلاحقة من اجل فلسطين ، الثورات والانتفاضات من اجل فلسطين ، الاحلاف والمعاهدات والاتفاقيات من اجل فلسطين • وتمتد الخلافات وتشتد حدة الصراع وترتفع ابواق الدعاية والحملات الاعلامية والشعارات من اجل فلسطين • حرب مستعرة لا هوادة فيها بين المصالح القومية وعملاء الاستعمار والامبريالية •• بين الوطنية والرجعية ، كل ذلك من اجل القضية • ومضى شعب فلسطين في الطريق الطويل مع الركب •• صراخ وردح ومجابهة دائمة من اجل المصلحة الوطنية والاهداف القومية •

وحتى عام سبع وستين يمكن لنا طرح الحقائق التالية :

١ـ لقد فشلت القومية العربية كطريق للشعب الفلسطيني من اجل القضية الوطنية فشلا ذريعا وبقي الجمود بين اللا سلم واللا حرب مخيما طيلة تلك السنوات في الوقت الذي ازدادت فيه عمليات الكبت والملاحقة والقمع بصفوف الشعب الفلسطيني وبتطلعاته المستقبلية بوجوده ومصيره • وان عملت بعض الانظمة العربية مخلصة من اجل فلسطين وشعبها فلقد كان ذلك عبئا ثقيلا على كاهلها وعلى اقتصادها الوطني وجزءا يسيرا من اعباء ومسؤوليات تلك الانظمة اتجاه حركات التحرر الوطني والقومي ، ولا نقصد بذلك حقيقة الفشل الذي تجرعته تلك الانظمة بالم ومرارة •

٢ـ ان الحركات الثورية الفلسطينية التي ظهرت في السنوات القليلة ما قبل الحرب ما هي إلا حركات لا ارادية اخرجتها إلى حيز الوجود صراعات القومية العربية في المتناقضات المتباينة والمواقف الشاسعة على حلبة الصراع الدولي والتي افقدت تلك الحركات القدرة على الشمولية والعطاء والمد الثوري في ظروف التمزق والتشتت والانقسام •

٣ـ ان الحركات الوطنية والعقائدية بالافكار العربية وخاصة التنظيمات اليسارية والدينية قد وضعت القضية الفلسطينية في حساباتها • وعلى جداول اعمالها كجزء من مخططاتها القومية والانسانية • وعلى الرغم من صراعاتها المريرة مع الانظمة العربية فلم تكن تملك القدرة على كبح جماح الانقسامات الداخلية بصفوفها والصراعات المبدائية مع التنظيمات المناوئة على الساحة •

وفي خضم ذلك الواقع المرير وتلك الظروف اليائسة ، بقيت القضية الفلسطينية محط الدعاية والاعلام لتحقيق المكاسب والمواقف الآنية التي لا تؤثر بجوهرها من قريب او بعيد •

وجاءت حرب حزيران عام سبع وستين وتغيرت الخارطة السياسية لفلسطين والاقطار العربية المجاورة• ويفرض واقع جديد اشد مرارة تهتز له الامة العربية من الاعماق • وبعد ذلك بست سنوات نشبت حرب رمضان المجيدة وتلتها اتفاقيات فض الاشتباك واتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية إلى ان تم الانسحاب النهائي من سيناء • ويمكن لنا بعد ذلك تصوير الوقائع التي عاصرناها بانفسنا وعشناها ولا نزال بدموع الفرحة واليأس تارة ، والامل والرجاء تارة اخرى طيلة سنوات الاحتلال على النحو التالي :

● تفضل بتتبع بقية البحث في العدد القادم ●